تلخيص كتاب كامل الصورة

لتعزيز اليقين وتثبيت الثوابت

للشيخ أحمد السيد

يقع الكتاب في ١٦٨ صفحة وهو مستمد من الحلقات المصورة لبرنامج كامل الصورة الذي تناول فيه عددا من التساؤلات المعاصرة التي تشغل الشباب، وهي:

- إثبات وجود الله سبحانه وتعالى
- الغاية من الوجود
- إثبات النبوة
- محاسن الإسلام
- التسليم لأمر الله ورسوله
- حجية السنة
- حجية الإجماع
- الدين، بفهم من؟
- بين نصوص الشريعة ومقاصدها
- لماذا يختلف العماء؟
- من يمتلك الحقيقة؟
- الحكمة من وجود الشر
- دعوى مظلومية المرأة في الإسلام
- الحرية
- الدين والعقل
- التشكيك في الإسلام بسبب تأخر المسلمين
-

وفيما يلي ملخص للكتاب في ١٧ صفحة، مرتبة في أربعة أبواب كما هي في الأصل. فما كان فيها من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان. والحمد لله رب العالمين.

للملاحظات

Nouf.saad.n@gmail.com

فهرس كتاب كامل الصورة

الباب الأول

أدلة أصول الإسلام

الباب الثاني

مصادر التلقي الشرعية والموقف منها

الباب الثالث

ظاهرة "القراءة المفتوحة للنص القرآني"

الباب الرابع

قضايا يدور حولها الجدل

الباب الأول

أدلة أصول الإسلام

١- إثبات وجود الله تعالى

٢- الغاية من الوجود

٣- إثبات النبوة وصحة القرآن

٤- محاسن الإسلام

١- إثبات وجود الله تعالى

تأملت عامة ما يثار من إشكاليات اعتراضات في هذا الباب فوجدتها ناشئة من أحد أربعة أمور:

الأول: الانحراف في باب مصادر المعرفة ووسائل اكتسابها

وأهم مصادر المعرفة: العقل والحس –كالإبصار واللمس- والخبر الصحيح الصادق، والفطرة.

والانحراف هنا يكون بحصر طرق اكتساب المعرفة على مصدر واحد، وإهمال بقية المصادر.

كأن تقول للملحد: إننا نؤمن بوجود الله سبحانه اعتمادا على دلائل العقل القطعية، وعلى الفطرة.

فيقول: ولكني لا أثق إلا بالأدلة الحسية التجريبية المبنية على الملاحظة في المختبر.

الثاني: التسوية بين أدلة المؤمنين وبين شبهات الملحدين

مثل التسوية بين المبدأ العقلي الفطري الضروري "كل حادث لا بد له من محدث" وبين فرضية خيالية سخيفة تقول إن احتمال وجود الله كاحتمال وجود إبريق في الفضاء لا تستطيع أن تثبت وجوده ولا أن تنفيه. وهذه تسوية بين مختلفات، فالإبريق لا أثر له، بينما كل شيء تراه في الكون هو أثر من آثار وجود الله تعالى وقيوميته.

الثالث: الاستدلال بأدلة صحيحة على نتائج لا تلزم منها

مثل الاستدلال بالقوانين العلمية المفسرة لحركة الكون على نفي وجود الخالق. فهذا استدلال يفتقد التلازم فإن وجود القانون لا يلزم منه عدم وجود مدبر له.

الرابع: الكبر والهوى

قال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ)** الاعتراف بوجود خالق عظيم عليم قدير وراء هذا الإتقان والإحكام في الإنسان والحيوان والكون أمر تدعو إليه الفطرة ويستوجبه نظر العقل وتطمئن إليه النفس. وإنما يحصل الجحود بسبب كثرة الشبهات المعارضة للنظر العقلي المستقيم، وللفطرة السوية مع مزيج من الكبر والهوى الذي يدفع بالإنسان إلى الاستنكاف عن الخضوع والذل لله سبحانه.

٢- الغاية من الوجود

وجود الغاية والحكمة العظيمة ظاهر لمن تأمل في الكون وإتقانه وجماله وتناسقه. إننا إذا عرفنا ضرورة انعدام العبثية، وتأكدنا من وجود غاية عظيمة، فكيف السبيل إلى تحديد تلك الغاية؟

إن الإنسان يريد الوصول المعرفة تفصيلية بخالقه وخالق كل شيء، يريد أن يتواصل معه، يشعر بالتعظيم جاهه ولكن يريد أن يعرف كيف يعظمه على الوجه الذي يحبه. إنه يريد أن يعرف مبدأه ومصيره، يريد أن يعرف ما يريده الخالق منه فهو محتاج إلى بيان شاف يسهل عليه معرفة ما وراء المحسوس، وجواب ما يقلق عقله من التساؤلات.

إن الله سبحانه كما جعل للناس علامات وقوانين يهتدون بها إلى طرق البر البحر والجو، فإنه جعل ناس علامات يهتدون بها إلى الحقائق الغائية الكبرى التي أوجد الكون لأجلها. ولأن الخالق جل علاه كامل الصفات؛ اقتضت حكمته أن يبين للإنسان هذه الحقائق عن طريق صفوة من البشر قد بلغوا الغاية في الصدق والأمانة والتقى، ويقيم الدلائل على صدق رسالتهم وصحة نبوتهم.

والقرآن الكريم الذي هو الرسالة الإلهية الخاتمة فيه حظ كبير من الآيات التي تعرف بالله سبحانه، ويعرف البشرية بأن إراداتهم الحرة محل ابتلاء الله لهم ليعبدوه طوعًا واختيارًا، فيثيب مطيعهم بأعظم ثواب، ويعاقب عاصيهم بأشد عقاب. قال تعالى: (تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ)

ويبين الله تعالى في آيات كثيرة من كتابه أنه غني عن عباده وأنه غير محتاج إليهم، وأن من اهتدى وأطاع فقد فاز، وحصل الربح لنفسه، ومن ضل وابتعد فقد خسر وكان الوبال عليه.

وخلاصة القول أن الغاية من الوجود هي:

- معرفة الله العظيم
- والتقرب إليه اختيارا
- وإثابة المحسنين بأعظم النعيم

- وإيجاد الحق والباطل امتحانا واختبارا لينتج عن ذلك أفضل المخلوقات، وإبعاد أرذلهم ومعاقبتهم.
- ظهور صفات الله سبحانه من العلم والخَلق والحكمة والقدرة والعزة والرحمة وغيرها.

هذا مما ظهر لنا، ولا يحيط أحد بحكمة الله علما. وهو سبحانه الأعلم بتمام حكمته، ونحن نجتهد في فهم ما بينه لنا منها، وهو غني عنا وعن فهمنا وعن عبادتنا سبحانه.

٣- إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وصحة القرآن

حاول الطاعنون في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم من المتقدمين والمتأخرين بأساليب متنوعة وشبهات متعارضة. ~~فطعنوا في شخص النبي صلى الله عليه وسلم تارة~~ وطعنوا في القرآن الكريم تارة أخرى، وذلك في سبيل تكذيب نبوته وأنه رسول من عند الله. فأما طعنهم في القرآن فإنه بعد أن اتفق العالمون بلسان العرب منهم على الاندهاش من عظمة القرآن الكريم وبلاغته، اختلفوا في الجواب عن سؤال: من أين جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن؟

فتارة قالوا: ساحر تتنزل عليه الشياطين، وتارة قالوا يعلمه بشر، وجاء المتأخرون فقالوا: إنه سرق مضامين القرآن من الكتب المقدسة.

والجواب عن هذه المطاعن الثلاث فيما يلي:

فأما قولهم ساحر تتنزل عليه الشياطين فقد رد الله تعالى عليهم بقوله: (**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**) وهم يعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن أفاكًا ولا أثيما، إذ أن ألسنتهم لم تجف بعد من حديثهم عن صدق محمد وأمانته.

وقالوا يعلمه بشر، ولكن لم يجدوا في بلغاء العرب المعروفين من يمكنهم أن ينسبوا القرآن إليه، فنسبوه إلى حداد رومي أعجمي في مكة زعموا أنه يُعلِّم رسول الله فقال تعالى: (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر)

وأما المتأخرون الذين وقفوا على بعض التشابهات بين قصص القرآن وقصص التوراة والإنجيل، فزعموا أنه سرق القرآن من تلك الكتب، غفلوا أن التشابه في القصص علامة مؤيدة لصدق النبي صلى الله عليه وسلم وليست دليلا على كذبه وذلك لأن تلك الكتب لم تكن مترجمة إلى العربية في ذلك الوقت، بالإضافة إلى كونه صلى الله عليه وسلم أميا لا يقرأ ولا يكتب، وإضافة إلى أن القساوسة كانوا يطوون نُسخ الكتاب المقدس عن العامة ليكونوا وسطاء بينهم وبين الرب. ثم إن القرآن أخبر بوضوح أنه مصدق لما بين يديه، فوجود التشابه في المضامين قد أخبر به القرآن نفسه وليس مما اكتشفه خصومه.

وهؤلاء المتقدمون والمتأخرون يفرون من وسيلة التخطئة الواضحة التي أرشدهم الله إليها بقوله: (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) فما بال قريش وسادة البيان من العرب وقفوا مدهوشين أمام هذا التحدي؟

ألم يكن اجتماعهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أسهل عليهم من المعارك التي خاضوها مع النبي صلى الله عليه وسلم؟

ألم تكن أنفتهم -وهم وجوه العرب- تأبى علهم إلا أن يخوضوا غمار هذا التحدي الذي اعلنه خصمهم أمام الناس ومحاولة الانتصار فيه؟

وهذا التحدي القرآني باقٍ مادامت السماوات والأرض، فمن كان في ريب من القرآن فدونه هذا الميدان، فليبد صفحته، وليعلن عن نفسه، فإن لم يفعل ولن يفعل فليتق النار فإنها حق.

ومن دلائل صدق القرآن وصحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم

أ. الأخبار الغيبية

من المعلوم أن الإنسان مهما بلغت ثقته بحدسه فإنه لا يستطيع أن يراهن على قدرات الآخرين التي تتقلب وتتبدل، ولا بد له لو أخبر بشيء مستقبلي لا دخل له بالحسابات والتوقعات العلمية- أن يجعل لنفسه طريق رجعة فيما لو لم يقع هذا الأمر الذي تنبأ به، وأما أن يأتي إنسان فيتحدث بأخبار غيبية كثيرة، متنوعة في موضوعاتها، متباينة في أزمنة وقوعها، منها ما هو متعلق بأحداث سياسية، وبعضها متعلق بتغيرات كونية، وبعضها متعلق بأمور اجتماعية، يخبر عنها بثقة وقوة وجزم وقطع، ثم يقع ما أخبر به على الهيئة التي أخبر بها، فإن ذلك كله ليس في قدرات البشر.

تأمل معي هذا الخبر {الم (1)**غُلِبَتِ الرُّومُ** (2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ}

هذه الآيات فيها إخبار عن أمور مستقبلية متعددة وهي:

١/ نشوب حرب بين فارس والروم

٢/ ينتصر فيها الروم على الفرس

٣/ الظرف الزمني لنشوب الحرب وانتصار الروم فيها هو ما بين ثلاث إلى تسع سنوات.

٤/ ويرى بعض العلماء فيها خبرا رابعا وهو انتصار المسلمين في معركة بدر في ذات اليوم الذي يتوج فيه الروم على الفرس وذلك من قوله تعالى: (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

ترى ما الدافع لأن يُعَرِّض النبي صلى الله عليه وسلم دعوته لخطر التكذيب- لو لم يكن واثقا تمام الثقة بحديثه الجازم عن نتيجة حرب لم تنشب بعد، بين أكبر جيوش العالم في ذلك الوقت، وزيادة على ذلك يحدد المدة الزمنية التي ستكون ظرفا لوقوع هذه الحرب الكبرى.

ماذا لو لم تنشب هذه الحرب؟

وماذا لو نشبت ولكن كانت النتيجة فيها لصالح الفرس؟ بل وماذا لو انتصر الروم ولكن بعد هذه المدة الزمنية أو قبلها؟

ألا يجعل ذلك للكفار حجة في تكذيبهم؟

بلى والله.

غير أنه لم تنصرم بضع السنوات المذكورة في الآية إلا وقد نشبت الحرب بين الفرس والروم، وانقضت بانتصار الروم على الوجه الذي جاء في القرآن، ليكون ذلك كله دليلا على أن القرآن من عند الله عالم الغيب وحده.

ومن الأخبار الغيبية التي جاءت في القرآن ونعددها تعدادا ونحيل القارئ إلى الكتاب لمعرفة تفاصيلها:

- (**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ** وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)
- **(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ** لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ)
- (مَن **كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ** فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

ب. شواهد صدق النبي صلى الله عليه وسلم

- فقبل أن يبعثه الله بالرسالة لبث عمُرًا في قومه بمكة لا يرون منه إلا شواهد الصدق والأمانة حتى استحق فيهم لقب (الصادق الأمين)
- وحين ذهب أبو سفيان إلى الشام قبل إسلامه، وكان سيد قريش وقائدها ضد النبي صلى الله عليه وسلم، استدعاه هرقل عظيم الروم وسأله عن أمور أراد بها التوصل إلى حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم، فكان فيما سأله: هل كنتم تتهمونه بالكذب؟ فأجابه أبو سفيان: لا. فقال هرقل قولة حكيمة: "وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذبَ على الله"
- وحين كسفت الشمس في اليوم الذي مات فيه إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم، قال الناس: "كسفت الشمس لموت إبراهيم" فقام فيهم خطيبا مصححا هذا الاعتقاد الخاطئ، معظمًا ربه وخالقه

ومولاه قائلا: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته" ثم أرشدهم إلى الصلاة والاستغفار والصدقة، وذلك لأنه رسول من عند الله. ولو كان هذا الحدث حصل لملك من ملوك الدنيا أو رجل يريد الشهرة والرئاسة على الناس لكانت فرصة له لتعظيم نفسه وولده.

ت. حفظ الله له ونصره إياه كما أخبره ووعده في القرآن

قضى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاما في تبليغ الرسالة، وتعرض فيها لكل أنواع الأذى لكن لم يستطع أحد من أعدائه قتله. قال تعالى: (**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ** مِنَ **النَّاسِ**)

وإذا أردت أن تدرك الحفظ الإلهي له فانظر إلى بيته الذي كان في المدينة، فلم يكن حصنًا كحصون اليهود، ولا قلعة كقلاع الروم، وإنما حجرات لا حارس عليها ولا بواب إلا عين الله التي تحرسه.

٤- محاسن الإسلام

إن أكثر من يدرك محاسن الإسلام على حقيقتها ويشعر بحلاوة الإيمان ويتذوقها هو الملتزم بتعاليم الإسلام وآدابه في نفسه ومع من حوله، وفي خلوته إذ إن الإسلام يغرس في نفس من يلتزم به قيمًا مطلقة متجاوزة للزمن، نابعة من ضمير الفرد، ولو غاب القانون الرادع، وهي أسمى من النفعية المجردة، وأعلى من كونها صادرة عن تنظير فيلسوف أو حكيم أو مجموعة مشرعين.

والالتزام بهذه القيم حال غياب الرقيب يُكسب المؤمن شعورًا تامًا بالثقة والاطمئنان لجمال هذا الدين العظيم؛ لأنه يرى أثره عليه في منعه من الظلم والبغي والخيانة والفواحش، ومهما قيل بعد ذلك في الإسلام من تهم وتشكيكات فإنها لا تكون ذات قيمة وبالٍ عنده لأن عنده ما يعارضها.

وتظهر مكانة القيم الأخلاقية والسلوكية إذا علمنا أن الإيمان الذي هو أهم ما يعيش المسلم لأجل المحافظة عليه- نجد في نصوص الوحي ما ينفيه إذا لم يلتزم ببعض القيم الأخلاقية.

ونجد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم قواعد في الفكر والمنهج والآداب الأخلاق، ننتقي مما جاء في الكتاب الأحاديث التالية من أقواله صلى الله عليه وسلم:

- "المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم"
- "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن" قالوا: من يا رسول الله؟ قال: "الذي لا يأمن جارُه بوائقه" أي شروره.
- "إن الله جميل يحب الجمال"
- "شر ما في رجل شحٌ هالع، وجبنٌ خالع"

"إن من أهم ما يبرز محاسن الإسلام ويرسخها في النفس: النظرُ إلى أحوال الجاهلية، ورؤية الجانب الإصلاحي العظيم الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في مقابل ما كان منتشرًا ومتجذرا في نفوس العرب من الناحية الاعتقادية والسلوكية ومن ناحية العادات والتقاليد.

إننا لا نتحدث عن نتائج إصلاح عادي يقارب نتائج الحركات الإصلاحية القديمة والحديث، بل نعبر عن حالة استثنائية فريد عبر عنها أحد المؤرخين المشهورين يقوله: "وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا: إن محمدًا كان أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجر الهمجية حرارةُ الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانيه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلما نجد إنسانًا غيرَه حقق كل ما كان يحلم به"

الباب الثاني

مصادر التلقي الشرعية والموقف منها

مصادر التلقي الشرعية ثلاثة: القرآن والسنة والإجماع.

فما جاء في القرآن والسنة من أمر أو خبر فالواجب التسليم له أي التصديق به، إن كان خبرًا، والقبول الداخلي له ثم العمل به إن كان أمرًا.

والتسليم عبادة ذكرت في القرآن وليست مصطلحًا حادثًا. قال الله تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا **شَجَرَ** بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

السؤال المطروح بنوع سخرية: "ماذا بقي للعقل إذا كان الدين مبنيًا على التسليم؟"

والجواب أن التسليم هو لازم إعمال العقل، فإذا أثبت العقل صحة رسالة النبي ﷺ بالأدلة؛ فإنه يثبت أنها من عند الله العليم الحكيم، فلا يشك أدنى شكٍ في أن ما أمر به هو الحكمة والأصلح للعباد.

ويبقى للعقل مجال ليعمل فيه كاستخراج الحكم والمقاصد والجمع بين النصوص التي ظاهرها الاختلاف.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم نموذجًا مثاليًا للتسليم وأظهر الأمثلة ما وقع في صلح الحديبية من تحللهم من الإحرام رغم شعورهم بالغضاضة والظلم تجاه الصلح.

وهروبًا من التسليم قد يلجأ البعض إلى ادعاء أن السنة ليست مصدرًا مستقلًا من مصادر التشريع الإسلامي وأنها مجرد مرويات لا يجزم بنسبتها إلى النبي ﷺ .

ويرد على هذا بأن القرآن أمر برد التنازع إلى الله ورسوله وأمرنا بطاعة الله ورسوله، ولا يمكن أن نطيع الرسول أو نرد النزاع إليه إلا باتباعُ سنته المنقولةِ إلينا عن طريق الثقات. قال تعالى: (فَإِن **تَنَازَعْتُمْ** فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) أي: إلى كتابه، وإلى شخص الرسول في حياته، وإلى سنته بعد مماته.

ثم لو لم يكن عندنا غير القرآن مصدرًا للتشريع، فكيف نعرف كم صلاة علينا أدائها في اليوم والليلة؟ هذا غير مذكور في القرآن ولكنه مذكور في السنة، وكيف نعرف كم ركعةً نصلي في كل صلاة؟ هذا غير مذكور في القرآن ولكنه مذكور في السنة.

والأعجب أننا لم نعلم أن للإسلام أركانا خمسة إلا من طريق السنة!

وهذا يبين أهمية السنة وأنها مصدر تشريعي، وليست مجرد أخبار يستأنس بها.

ثم إن هؤلاء المشككين في حجية السنة قد يستدلون بأخبار السنة لتأييد ادعائهم، كالرواية الضعيفة التي جاء فيها أن أبا بكرٍ أمر بحرق خمسمائة حديث أو باستدلال بروايات صحيحة يسيئون فهمها أو يختزلونها.

فهؤلاء ما داموا يعتبرون أقوال الصحابة ومواقفهم فإنه يُرد عليهم بها مثل قصة فاطمة رضي الله عنها في طلبها من أبي بكر ميراثها من أبيها رسول الله ﷺ بناءً على قوله تعالى: (**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ**) ولكن أبا بكرٍ تمسك بما في السنة وهو خبره ﷺ أن (الأنبياء لا يورثون، وأن ما تركوه من مال فهو صدقة) فلم يعطها إياه لأنه يرى أن السنة حجة ملزمة ومصدر تشريعيٌ.

ثم إن الإجماع منعقد على حجية السنة قال ابن حزم: "وكذلك إجماع أهل الإسلام كلهم جنّهم وإنسهم في كل زمان ومكان على أن السنة واجب اتباعها، وأنها ما سنَّه رسول الله... فاعلموا رحمكم الله أن من اتبع ما صح برواية الثقات مسندًا إلى رسول الله ﷺ فقد اتبع السنة يقينا"

ولكن هناك فئة من المنكرين يطرحون شبهة مفادها أنهم لا إشكال عندهم مع أقوال الرسول ﷺ وإنما إشكالهم مع طريقة نقلها وتوثيقها.

وفيما بيان مختصر في منهجية المحدثين وطريقتهم في توثيق السنة.

إن أهل الحديث لا يحكمون على حديث أنه صحيح إلا إذا توفرت فيه خمسة شروط، هي:

١- عدالة الرواة. وضدها الفسق. فكل راو في سلسلة الحديث لا بد أن يكون عدلًا غير معروف بارتكاب المعاصي. لأنه إذا تجرأ على الحرام بلا توبة فقد يتجرأ فيكذب على رسول الله ﷺ.

٢- الضبط والإتقان. لأن الراوي قد يكون عدلًا صالحًا، ولكنه لا يضبط الأخبار، فمثل هذا لا يُخشى من تعمده الكذب، وإنما يُخشى من خطئه وغلطه. ويقاس الضبط عند المحدثين بعرض أحاديث الراوي (المراد قياسه ضبطه) ومقارنتها بأحاديث الثقات. فكلما كانت أحاديثه موافقة لأحاديث الثقات يُحكم عليه بالضبط والإتقان.

٣- اتصال السند. فإن وجد انقطاع في السند فيحكم على الحديث بالضعف إجمالًا، لأن المنقطع هو الذي يكون سقط من إسناده بعض الرواة، فلا يمكن معرفة حال الراوي الذي سقط هل هو عدل ضابط أم لا.

٤- السلامة من الشذوذ. وهو أن يتفرد راوٍ بأصل من الأصول عن النبي ﷺ ، أو بما لا يحتمل مثله أن يتفرد به، وهذا الراوي لم يعرف بالتقدم في الضبط والإتقان. فينظر المحدثون إلى قرائن في المتن والسند وإلى حال الراوي المتفرد، ومن ثم يحكم برد الحديث أو قبوله. فليس كل تفرد مقبولا، وليس كل تفرد مردودا.

٥- السلامة من العلة. وذلك يجمع طرق الحديث للتأكد من خلوه من العلل الخفية.

ولا تتوقف الشبهات والاعتراضات عند هذا الحد، فيأتي من يطلق الاتهامات بأن علم الحديث تحكمت فيه السياسة وألاعيبها. ويكفي في رد هذا الاتهام أن يُعلم أن من أطلقه ليس له اطلاع كاف على العلم الذي يتحدث عنه.[١]

وإثبات دقة علم الحديث يحتاج إلى كلام طويل، ونقتصر هنا على مثال واحد يبين مدى التحري والدقة في الحكم على الأحاديث. وذلك أن علماء الحديث رحمهم الله قد دونوا في سجلات ضخمة السير الذاتية لآلاف الرواة، مثالها كتاب تهذيب الكمال في أسماء الرجال في خمسة ثلاثين مجلدًا! تحوي كل سيرة من سير الرواة في تلك الكتب على معلومات عن الراوي: اسمه، اسم أبيه، كنيته، قبيلته، روى عن من، من روى عنه، تاريخ وفاته، حاله ضعفا وقوة.

[١] يرجع لمحاضرة مدخل إلى علم الحديث لأحمد السيد

الباب الثالث

ظاهرة "القراءة المفتوحة للنص القرآني"

حيلةٌ خرج بها من يريد التخلص من أحكام القرآن من غير أن يتبرأ من القرآن فتجدهم يقولون: نحن نؤمن بالقرآن ولكن لا نؤمن بفهمك أنت للقرآن، ولا بفهم العلماء السابقين ولا اللاحقين، ولا نسلِّم لفهم أحد من المسلمين، وإنما لكل واحد منا قراءته الخاصة. والجواب على هذا بأن يقال لهؤلاء إذا كان الأمر بهذا الفهم فلماذا يأمرنا الله برد التنازع إلى القرآن؟ (**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ** فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) إن الآية تدل على أن النزاع يفصل بردّه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومقتضى دعوى هؤلاء هو أن النزاع يزيد بردّه إلى القرآن لأن لكل إنسان فهمه.

اختلاف العلماء

ولقائل أن يقول اذا كان فصل النزاع بالرجوع إلى القرآن والسنة فلماذا يختلف العلماء مع إقرارهم بهذا؟

الجواب أن اختلافهم يرجع إلى ثلاثة أسباب:

١. عدم بلوغ النص الشرعي للعالم.

٢. الاختلاف في فهم الدليل.

٣. توهّم تعارض الأدلة.

ويظن البعض أن مجرد وجود الاختلاف بين العلماء إيذانٌ بانتقاء ما شاء من الأقوال!

قال ابن عبد البر رحمه الله: "الاختلاف ليس بحجة عند أحد علمته من فقهاء الأمة إلا من لا بصر له ولا معرفة عنده ولا حجة في قوله"

فليس للمرء أن يعمل بالشيء بحجة أن فيه اختلافًا بين العلماء.

إذًا ما الموقف الصحيح من اختلاف العلماء؟

الجواب في حال كان الناظر في الاختلاف يمتلك أدوات علمية فإنه يبحث عن الأصوب والأرجح بميزان الكتاب والسنة فينظر لدليل كل قولٍ وصحة الدليل ووجهِ الدليل وصحة الاستدلال به.

أما إن لم يكن لدى الناظر أدواتٌ علمية فإنه يقلد من يظن أنه بتقليده يقترب من الوصول إلى مراد الله ومراد رسوله ﷺ .

مسألة: هل الخلاف رحمة؟

هذا أثرٌ لا يصح عن رسول الله من جهة الاسناد، اما من جهة المعنى ففيه تفصيلٌ. فإذا كانت أدلة طرفي الخلاف متكافئة يكون الاختلاف رحمة ويكون الأمر فيه سعة كبيرة. وهذا يمثله عدد غير قليل من المسائل الفقهية المختلف فيها بين العلماء ولا يمنع هذا أن يعرف الأصوب من الطرفين.

أما إذا كان أحد الطرفين يُخالف مخالفة صريحة لنص شرعي صحيح ثابت وليس له معارضٌ صحيحٌ فلا يوجد ما يسوّغ مخالفة النص الشرعي، ولا يعد ذلك توسعةً.

وكثير من القضايا الشرعية متفقٌ عليها بين علماء الإسلام ولا خلاف فيها، فحسنٌ أن نركز عليها لأنها تعود إلى العمل المطلوب منا شرعًا.

من يمتلك الحقيقة؟

في حالة الاختلاف الفقهي فقد سبق النقاش في الفصل السابق. أما في حالة الخلاف بين الأديان فإن هذه القضية في القرآن والسنة تامةُ الوضوح ولا تحتاج إلى أكثر من الإيمان والاتباع فالأدلة فيها ليست مشكله ولا خفية فالقرآن والسنة يدلان بوضوح وقوة على أن كل الأديان بعد ظهور الإسلام باطلة، وأنمن يبتغ غيرالإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، وأن فكرة التثليث عند النصارى، والتكذيببالنبي عندهم وعند اليهود= كفر بالله صريح. وما يتعلق به البعض من نصوص الثواب العامة فإنه من المجمل الذي يرد إلى المحْكَم البيِّن.

- وفي حال الخلاف الاعتقادي بين طوائف الأمة الإسلامية فإن النبي ﷺ بيّن للناس ما يجب عليهم اعتقاده، كما بين لهم ما يجب فعله أو تركه ولم يجعل الله تعالى أمور الاعتقاد موكولةً للآراء، فإن أراء الناس لا تجتمع على شيء في قضايا الاعتقاد فهناك من يرى عبادة الفأر والبقر والحجر والشمس والقمر، فمع امتداد الزمن وموت الصحابة وفتح البلدان تأثر بعض المسلمين بمواد علمية مستمدة من ثقافات أخرى أوجبت لهم موقفا من نصوص الاعتقاد يختلف كل الاختلاف عن منهج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونشأت فرق ومذاهب صار لها حضور بين الناس حتى تبنى بعض ملوك بني العباس شيئا من هذه المذاهب فانتصر لها بالقوة وحارب العلماء الذين التزموا بالمنهج الأول؛ كأحمد بن حنبل رحمه الله.

والصواب في هذه الاختلافات ليس مع الجميع، بل مع من سار على نهج أصحاب رسول الله الذي ورثوه عن المصطفى ﷺ ولا يعني ذلك قطع الأاصر بين المسلمين من جهة التعامل والتعاون خاصة مع استهداف المسلمين فيما هو أكبر من ذلك من أصول ديانتهم.

فالمطلوب بيان الحق بدليله، ونصيحة المسلمين وإرشادهم.

- وأما من يمتلك الحقيقة في المسائل الفقهية فهو مذكور في باب مستقل بعنوان **"لماذا يختلف العلماء؟"**

الباب الرابع

قضايا يدور حولها الجدل

١. الحكمة من وجود الشر

من التساؤلات التي أدت بشريحة من الشباب إلى الشك في وجود الله تعالى هو الحكمة من وجود الشر، مع أنهم حين ألحدوا وتركوا الإسلام لم يجدوا تفسيرا صحيحا لهذا التساؤل. ومع ذلك فقد أخبرنا الله تعالى في كتابه أنه سيبتلي عباده بأنواع البلاء، فوقوع المصائب والابتلاءات موافق لخبر الله وليس معارضًا له. ولكن مثيري هذا التساؤل يتوهمون التعارض بين المصيبة والرحمة. ولكي نفهم الحكمة من وجود الشر ونجمع بينها وبين وجود الخالق العظيم، علينا أن نتأمل الحقائق التالية:

١- حقيقة الدنيا أنها دار مؤقتة ودار امتحان ونقص وليست دار جزاء ولا أخذ حقوق، وأن الآخرة هي دار الكمال ودار البقاء.

٢- معظم الشرور التي تقع إنما هي من فعل الإنسان بإرادته واختياره، كالظلم والقتل، فالله تعالى جعل للإنسان إرادة لأجل التكليف فهو مخير لا مجبر والله سبحانه يستوفي للمظلومين حقهم من الظالمين ولكن في دار الآخرة. والله تعالى قد قدر كل شيء وعلمه، ومما قدره أن جعل للإنسان اختيارا حقيقيا، فالشر ينسب لفاعله الذي اختاره ولا ينسب لله سبحانه وتعالى.

٣- تقع بعض الكوارث بلا تسبب مباشر من الإنسان كالبراكين والزلازل. وهذه تقع لحكم نعلم بعضها مثل أن تكون عقوبة على فساد الناس، أو تكون جرت لمصلحة تقتضيها حركة الكون وتوازن البيئة، ويقع بعضها لتذكير الإنسان بخالقه العظيم محدودية قدرات البشر وضعفهم أمام قدرة الله تعالى.

٤- كثير من الشرور ليست شرورا محضة من كل وجه بل يكون فيها جوانب خير، فقد يصاب الإنسان بمرض يصرفه عن شر أعظم منه. أو يكون مستحقًا للنار –وهي الكارثة الحقيقية- فيصاب بمصيبة فيصبر عليها فيجزيه الله على صبره بالجنة وهي الخير الحقيقي الدائم. فالله تعالى لا يخلق شرًا محضا، ولا ينسب إليه الشر.

٥- لا بد أن نؤمن بوجود حكمة تخفى علينا من وقوع الشر، إننا على سبيل المثال حين نرى شركة منتجة لصناعات غاية في الإتقان ثم نرى في بعض منتجاتها شيئًا غير مفهوم الفائدة فإننا نستصحب أصل جودة منتجاتهم، فنبحث عن فائدة خفية أو حكمة متوارية، فما بالك بصنع الحكيم العليم الذي يرى ما لا نرى ويعلم ونجهل، والرحيم الذي أطعمنا في بطون أمهاتنا، فنحن نسلّم أنه الرحيم الحكيم العليم فلو رأينا شيئًا لا نعلم حكمته فإن العقل يقتضي جر القياس.

٦- من سنن الدنيا وجود المدافعة بين الحق والباطل وهذا من الحكم في خلق إبليس -لعنه الله – والطغاة والأشرار. ومع ذلك فلم يتركنا الله سبحانه دون بيان خطر الشيطان وحزبه.

٧- إن الإلحاد بسبب عدم فهم الحكمة من جود الشر هو إغفال لدلائل كثيرة متنوعة واضحة تثبت وجود الله سبحانه وتعالى، والانسياق لشبهة كهذه فيها ما فيها من الثغرات

٢. دعوى مظلومية المرأة في الإسلام

رسائل تشكيكية تصور الأنثى بصورة المظلومة في حكم الإسلام نجحت في استمالة ضعيفات الإيمان إلى ظلمات الشك والإلحاد. وفي النقاط التالية نبين الغش والتدليس الانتقاء المبني على الهوى عند هؤلاء الطاعنين في الإسلام:

١. إغفالهم جوانب الإكرام الذي حظيت به المرأة المسلمة

ومن ذلك أن الله تعالى ضرب مثلا للمؤمنين بامرأتين يقتدي بهما الرجال والنساء **{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَونَ}** فهل الدين الذي يجعل المرأة قدورة لرجاله يكون دينًا يحتقر المرأة؟

٢- إغفالهم التخفيف على المرأة في أحكام شرعية شدد فيها على الرجل كإيجاب الجهاد والصلاة جماعة على الرجال، والنفقة على الزوجة ولو كانت غنية، وتحليل الذهب للمرأة وتحريمه على الرجل، وتحليل الحرير للمرأة وتحريمه على الرجل، وأخذ الجزية من الرجال غير المسلمين وعدم أخذها من النساء.

٣- نسيان أو تناسي أن الرجل مأمور شرعًا أن يبذل المهر للمرأة وأن ينفق عليها طوال حياته، واستكثار أن يكون له ضعف نصيبها من الميراث، وإبراز حالة الميراث (**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**) وإخفاء الحالات التي ترث فيها المرأة مثل ما يرثه الرجل أو ضعفه مثل (**وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ**)، (**وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ**).

٤- التناقض بين دعاويهم وبين الواقع، فهم يحاربون الزواج الشرعي من فئة القاصرات-كما يسمونها- بدعوى الظلم، وفي ذات الوقت تثبت الإحصائيات نسبة كبيرة من الحمل غير الشرعي في هذه الفئة.

ويحاربون تعدد الزوجات بدعوى أنه ظلم للمرأة، مع أن المرأة تختار الزواج من معدد وليست مجبرة، ولا يحاربون تعدد العشيقات والعاشقين، وينادون بالحرية في علاقات امرأة ثم يحرمونها حقها حين تختار الزواج من متزوج.

٥- نسبة العادات الخاطئة إلى الإسلام فحين يُكرِه ولي أمر المرأة إياها على الزواج ممن لا ترغب به فإنهم ينسبون ذلك إلى الإسلام، في حين أن الإسلام حذر من هذه العادة ونهى عنها.

٣- الحرية

انقسم الناس أمام مصطلح الحرية إلى طوائف شتى فمنهم من غلب جانب الاستنكار تجاهه وأنكر بعض معانيه الصحيحة وعارضها، وطائفة أخرى تدعو إلى نوع من الحرية يفسد الإنسان ويطيح بكرامته وينزع عنه كل ما يميزه عن الحيوانات، فيدافع عن الشذوذ الجنسي وعن ممارسة الفاحشة مع الكلاب وغيرها، ويغلب جانب الأنانية بصورة مقيتة، كل ذلك بدعوى الحرية.

والموقف العدل هو في التوسط بين تلك الطائفتين فيقال: (حريتي تنتهي عند حدود الله)

٤- الدين والعقل

إن الموقف العدل من العقل هو التوسط وذلك بالجمع بين كونه مصدرا للمعرفة وبين احترام حدوده التي لا يستطيع تجاوزها. "وقد وردت مادة العقل في القرآن تسعًا وخمسين مرة، كلها يفيد أن انتفاء العقل مذمة، هذا سوى ذكر مرادفاته كالألباب والأحلام والحجر، وذكر أعماله كالتفكر والتذكر وال والنظر الاعتبار والفقه والعلم" وقد جاء الإسلام والأنبياء عموما بمحارات العقول لا محالات العقول "فالأنبياء يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته لا بما يعلم العقل بطلانه) ابن تيمية.

ومن أكبر مسببات الخطأ في ادعاء التعارض بين الدليل والعقل هو اعتبار المرء فهمه الشخصي معيارا للعقل وهذا غير سائغ فإن طباع التكوين، ومدى سعة المعلومات في الذهن، ورصيد الخبرات كل ذلك متعدد ومختلف بين العقول.

٥- التشكيك في الإسلام بسبب تأخر المسلمين

فيردد كثير من الملحدين والمشككين في الإسلام هذه الأسئلة: لماذا يعيش العالم الإسلامي في تأخر، لماذا يقتتل المسلمون فيما بينهم، في حين يعيش الملحدون بسلام؟ أليس هذا دليلا على عدم صحة الإسلام؟

الجواب في نقاط:

١. وقوع القتل بين طوائف المسلمين يعد خطأً فرديًا وجماعيًا لا يجوز إلصاقه بالإسلام.
٢. من أكبر جرائم القتل التي ارتكبت بحق الإنسانية في العصر الحديث كانت في الحرب العالمية الثانية التي بلغ ضحاياها ٥٠ مليون قتيل، وأطراف الحرب فيها: ملحدون وعلمانيون ونصارى.
٣. الحملات الاستعمارية التي قامت بها فرنسا وبريطانيا على البلاد العربية والإسلامية في عصور التنوير والحرية وحقوق الإنسان في أوروبا كفيلة بإسقاط أفكار التنوير والحريات الغربية.
٤. ليس كل شخص منتسب للإسلام يكون حسن النية، فهناك من يلبس الدين ظاهرًا ويحاربه حقيقة، وهم المنافقون.

٥. التفوق الحضاري المادي يحصل بأخذ سنن التفوق المادي التي جعلها الله بعدله لكل من الخلق ولو كان كافرا عاصيا لله، فالله يعطي كل إنسان على قدر ما بذل.

٦. كثير من التأخر والمصائب في العالم الإسلامي ليست سوى بسبب أياد ظاهرة أو خفية من غير المسلمين، فقد كان للعدوان الروسي غيره على سوريا أشد الأثر في استدامه المصائب والكوارث، فكم رأينا من جرائمهم في قصف المخابز والأسواق والمدنيين بطريقة متوحشة، فهل تلك المصائب بفعل المسلمين؟